

الى الشاعر أبي سلمى

أنتَ الجذع الذي نبتت عليه أغانينا... بقلم محمود درويش

الالم . هذه هي المعادلة : انتزع الالم من اللذة تفقد الوطن وتقع في المنفى وقد تبدو أسرى الاحساس بالقرب . هكذا تبدو للوهلة الاولى كما يبدو النهر العميق واقفا . هكذا تبدو لمن لا يعرف الوطن الا دارا بالاجرة ، وينام في اسرة الاخرين . ولكننا لسنا غرباء . لا منطلق اعظم من منطلق النصف الباحث عن نصفه ، والشجرة الطالعة من مكانها . هذان النصفان يملكان مهرجانا من الحسق والحقيقة واذا كانا مضطرين للبرهنة على صحة انتمائهما فذلك لان للتاريخ حاسة سخرية . الاسطورة تواصل تكوينها ونحن نكمل الاسطورة . لقد استبدلنا امهاتنا بجذوع الزيتون كي لا نصبح غرباء .
وانت معنا

ان الحلم يسرق احذية الأطفال ، والحلم صديق غدر . لا نذكر من طفولتنا نجوما تسبح في الماء . كانت النجوم سقوفا تقينا الرصاص القادم من جهات ثلاث . ومن الجهة الرابعة الآمنة مضى شعبي . ثم صارت النجوم جراحا . يا شعبي ؟ اريدك ان تعود . يا شعبي عد من كل الجهات على خطأ . وانت بعيد ..

ومن يصف أوجاعي ؟
على تربة هذا الوطن مشى مغنون كثر . وفجأة لا احد . لقد كنت آخرهم يا ابا سلمى . لماذا تبدو بلادك خارج الزمن وتحت الجلد ؟

ولقد فرحت بك ، كما يفرخ الطفل اليتيم بأبيه الحي . لقاءتنا عابرة في المدن البعيدة عن حيفا ، ولهذا تبقى إفراخنا عابرة . واذا كان الفرح عابراً يكون الحزن عابراً . فأين نقيم . وماذا قال ناظم ؟ وضعوا الشاعر في الجنة ، فصاح : آه .. يا وطني ؟ . ولكنني افرح بك في كل مكان يا قطعة من وطن ترحل وتحسوم على العرش المحرم . لم نقلها لك بعد ، ولعلك لم تسمعها : انت الجذع الذي نبتت عليه اغانينا نحن امتدادك وامتداد اخويك اللذين ذهبا - ابراهيم ، وعبدالرحيم الذي قاتل بالكلمة والجسد . لا ، لسنا لقطاء الى هذا الحد . اننا

فرحت بأبي سلمى كما يفرح الطفل الضائع بأبيه الضائع .

ونحن نبحث عن معجزة التئام تعيد وحدة البرتقالة التي شقها السكين الى نصفين . وما انتهت المسألة ، فان نصفي البرتقالة المرصودين بالاسلاك والموت قد حققا مقدمة المعجزة : لم يعتصرا . لقد سال منهما دم كثير ، ولكن لم يعتصرا . وسقط عليهما ذباب كثير ، ولكن لم يفسدا . ولعل هذا ، وحده ، مبرر للرجاء . اننا باقون من الجانبين . وقد نخسر كل شيء ونموت على تربة اخرى ، ولكننا لا نفقد هذا الرجاء . ولهذا ، وحده ، نحن أحياء وجدديرون بالحياة . والبطل فقط هو الجديسر بالورد والخنجر . وهذا الشعب الذي يرتفع على آلاف الخناجر لن يسقط ، وستكرس كل الورود مستقبلها لتصل الى أقدامه .

وماذا اقول لأبي سلمى الواقف على الحد الثاني من السكين ؟ ماذا اقول له ، وهو بعيد عنا بعد القلب عن العينين ، وقريب منا قرب ضفة النهر الواحدة من الضفة الاخرى ؟ . اقول : سنلتقي بمدى ما نذبح وبقدر مسانتقي نتحاشى مبارزة الموت نفقد حقنا في الانتظار . سنلتقي بقدر ما نمشي ، وبمدى ما نصر على الاحتفاظ بكوننا ضفافا .. سنبقى قرييين ولكن بدون لقاء . لم اجد اقسى من عذاب الضفتين . ان هويتهم عقاب . قال لي صديق محكوم بالسجن لانه لم يحسن التعبير عن حبسه لبلاده : «لو كلفوني بمهمة التعذيب لسجنت العاشق مع حبيبته في زنزانة واحدة وبينهما حائط من زجاج شفاف» . لقد فعلوها .

وماذا اقول لأبي سلمى الذي يطالني بالكلام في المدن البعيدة ؟

لقد الفنا كل شيء ، الا الرضا . وما زال المكان في مكانه . وبلادك - لا تدهش - ما زالت اجمل من احلامك . انها تتناوب الزرقة والخضرة ، واللذة احساس فاسد ما لم تبلغ الالم . عزاء ؟ ولكننا نتحدى التحدي بمصادقة

ابناؤكم .

الشعب يعرف كيف يموت ، ومعرفة اختيار طريقة الموت هي أتمن علامات الجدارة بالحياة والحرية . وماذا بعد ؟ من حقنا ان نعاتب الحرية العنيدة . . وماذا بعد ؟

ان المأساة تزيد شعبي إنقانا لطريقته في الموت . والذي عرف الموت مرة لن يموت مرة اخرى . وشعبنا عرف الموت مرات ، وفي كل مرة يهب واقفا . . واقفا . ان الموت حين يكرر نفسه يصبح لعبة ، وسيقتل الموت نفسه . . سينتحر غضبا على شعب فلسطين . كان ينبغي على الضحية ان تثبت براءتها . وقد شغلوها بهذه اللعبة سنين . ولكنها اكتشفت انها ستدوب في طاحونة الكلمات ، واكتشفت ان عليها ان تثبت جدارتها ، فقامت وضربت القضاة والشهود والمتفرجين ، وقبل كل شيء ، وضربت الموت . هذه هي معجزتها ، معجزة الضحية التي تقوم . فهل بقيت لنا اية اسباب لليأس ؟ يبدو ان التاريخ قد اختارنا . . اختارنا لتغلب على الموت . ويبدو ان التاريخ يثق بنا ، فما علينا الا ان نثق بانفسنا . مذبحة وراء مذبحة وراء مذبحة . هذه هي حياتنا ، ولكن هذا امتحاننا . . انتزاع الحياة من المذابح . هذا هو مستقبل شعبنا العظيم .

ولن اقول لك : وداعا

ساقول لك دائما : الى اللقاء

الى اللقاء يا ابا سلمى

يا مغني فلسطين في كل مناخ : في الثورة ، في الهزيمة ، في التشرذم ، في المقاومة ، وفي العودة . ان بلادك تنتظرك . والعنديل الذي اخبرك بذلك هو دائما على صواب . انه صوت التاريخ في لحظة حقيقة . والحقيقة التي كنا نبحت عنها في ملفات القانون الدولي تصرخ من كل حجر فلسطيني . ومن شدة الحب صرنا نفهم لغة الحجارة . ودمنا الذي يملأ وجه العالم سيتحول الى مرايا للضمان . لنواصل بحثنا عن معجزة التئام تعيد وحدة البرتقالة التي شققها السكين الى نصفين . ان البعد بينهما يقترب ، انت تقترب ، انتم تقتربون . نحن ما زلنا معا ، وليس للجغرافيا شأن في الحب . والبرتقالة تكبر في حجم الفرح .

ويا ابا سلمى ، واصل حبك ، ودع الوطن يفنيك . لم تخسر شيئا ، لم يضع عمرك سدى . لقد اثبتت جدارتك بهذه الهوية الاسطورية : مواطن فلسطيني ؟ (✕)

محمود درويش

(✕) مقدمة ديوان ابي سلمى الجديد (من فلسطين ريشتي) الذي يصدر هذا الشهر عن دار الآداب .

لقد كنت شاعر المقاومة قبل اكتشاف النقاد لهذا التعبير ، وقبل تحوله الى تعبير شائع . يحدثنا آباؤنا عن ثوار فلسطين الذين كانوا يحملون سلاحين : البندقية والقسيده . وكانت القسيده لك . من ينسى غارتك الشجاعة على عروش الملوك ، يوم كان الشعر نديما للملوك ؟ ومن ينسى اغانيك ووقفاتك اليسارية عندما كانت اليسارية مغامرة توصل الى المشانق ، وتحرم الناس من رحمة الله ؟ . ان الدنيا تتغير . الا تفورق عينك فرحا وانت ترى الان الى تدفق الاجيال المقاومة واليسارية ؟ . كلا ، ما ضاع شيء سدى . ماضيك مليء بالبرق ، والحاضر مزدحم بالرعد . . وتسقط الامطار . وماذا اقول لك يا ابا سلمى ، ونحن على سفر ؟

اننا نلتقي على متون الطائرات ، وتحت سماء اخرى ، نتحدث ثم نتحول الى صم . ولا نلتقي حيث يجب ان نلتقي . كانت فلسطين حبك ، ثم صارت الى اسطورة . ولكنها اسطورة لا تقرا ، بل تؤلف . لقد اكتملت كل الفصول ، والمأساة اتسعت وامتدت ، وارتفعت حتى الصلب . لا . . لم تنته الاسطورة ما زالت ناقصة الى ان تبلغ حافة الفرح . من اجل هذا الفصل الموعود . فصل الفرح ، نطالب انفسنا بالحياة . لقد رايناها مذبوحة على الاشجار والاورار وكانت تفنينا : انت تفني للعودة ، ونحن نفني للبقاء . يبقى تشييدنا ناقصا ما لم يكتمل بنشيدك ، ويبقى نشيدك ناقصا ما لم يكتمل بنشيدنا . هكذا نكمل بعضنا البعض مرة اخرى بطريقة ثانية . يتجاوز الآباء انفسهم ويعيدون ترتيب الزمان . يصيرون ابناء . كلنا الان في عمر واحد . كلنا الان ابناء هذه القديسة القاسية : فلسطين . نحن لم نحولها الى رموز . هي التي حولتنا . ونحن لا ننطق باسمها فهي اللقمة الوحيدة . شكرا للسكين ، لقد جعلنا عشاقا حتى العبادة . يسمونك الشاعر المشرذم ، وأسميك العاشق المشرذم . العشق اولا والشعر تانيا . من لا يعشق لا يحسن الغناء ، ومن لا يعشق لا يحسن القتال . هل تغيرت ؟ كنت تحبها وانت في احضانها . ثم وقعت في تجربة حبها من بعيد ، ونجحت . لا ، ليس البعد جفاء . من الصعب ان يصبح الشاعر شاعر حنين ، لان الحنين قد يؤدي الى التراخي . ولكن حنينك ليس سلبيا ، ليس انهزاميا ، وليس تسلية حيادية . انه حنين فعّال : حنين المواطن وحنين المقاتل وحنين العائد .

.. وهذه العودة هي ما يبكيها

لقد دفع شعبنا اكثر من دين واحد للحرية . لعله سدد كل ديون الحرية . ويوما بعد يوم يزداد ذبحا وقتلا . والعجيب ، ان هذا الذبح يزيد حياة ، لان هذا